

عَلِيمًا حَكِيمًا) (النساء/ 104). وكأنَّه بهذا يقول لهم إنَّكم ترجون من الله ما لا يرجون، لأنكم تعلمون من الله تعالى ما لا يعلمون، وتخصونه سبحانه بالعبادة والاستعانة، وهم مشركون، وقد وعدكم الله إحدى الحسينين - النصر أو الجنة بالشهادة - إذا كنتم للحق تنصرون، وعن الحقيقة تدافعون. فهذا التوحيد في الإيمان، وهذا الوعد من الرحمن، هما مدعاة الأمل والرجاء، ومنفاة اليأس والقنوط، والرجاء يبعث القوة، ويضاعف العزيمة، فيثابر صاحبه على العمل بالصبر والثبات. واليأس يُميت العزيمة ويضعف الهمة، فيغلب على صاحبه الفتور والجزع.

والقرآن الكريم يفتح أبواب الرجاء والأمل أمام عباد الله المؤمنين، ليدخلوها فيتمتعوا بخير هذه الفضيحة الأخلاقية الجليلة: فضيلة الرجاء والأمل وحسن الظن، فيقول عن المؤمنين في سورة آل عمران: (اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمُ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لِمِ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) (آل عمران/ 174-172).

ويشير الحق جلَّ جلاله إلى المواطن الشديدة التي ينبغي أن يتحلَّى فيها المؤمن بحسن الرجاء في القرآن، لأنَّه المنفذ منها، فيقول في سورة النحل: (أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَافَاءَ الْأَرْضِ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (النمل/ 63-62).

وورد في الحديث القدسي ما يدعو إلى التحلي بالرجاء في القرآن، والحث على حسن الظن به، فقال: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما يشاء). وقال: "يا ابن آدم، إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي". وأكد الحديث النبوي هذا المعنى الجميل النبيل فقال: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه".

وينبغي أن نفهم أنَّ الرجاء يستعمل بمعنى الخوف في لغة القرآن، وذلك لأنَّ الراجي يخاف ألا يحقق أمله، ومن قبيل استعماله مادة الرجاء بمعنى الخوف قول الله تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) (نوح/ 13). أي ما لكم لا تخافون الله عظيمه؟.

والرجاء والخوف في مفهوم مهذبي الأخلاق ومؤدبي الأرواح يتلازمان: لأنَّ التطلع إلى المرغوب يصحبه توقع لحدوث المكروه، فيظل الإنسان راجياً وهو خائف، ويظل خائفاً وهو راج، وبذلك يكون على الصراط.

ولذلك قالوا إنَّ الرجاء ذو شعب ثلاث هي: العلم والمال والعمل، فالعلم يثمر المال، والمال يقتضي العمل، وعنوا كثيراً بالتأكيد على تلازم الرجاء والعمل، حتى لا يكون تمنياً كاذباً، ومما يشير إلى اقتران الرجاء بالعمل قول الله جلَّ جلاله: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ) (البقرة/ 218). وكذلك قوله: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) (الكهف/ 110).

وإذا تعرفنا إلى درجات الرجاء وجدنا أولها وأعلاها هي رجاء المؤمن الذي يعمل لطاعة الله، على نور من الله. وهو يرجو ثوابه، وأقل منها درجة هي رجاء من أذنب ذنباً ثم تاب منها، فهو يرجو عفو الله وغفرانه وإحسانه، وأحط الدرجات رجاء من يتمادى في الخطأ والإهمال، ثم يرجو رحمة ربه بلا عمل، وهذا رجاء كاذب، لأنَّ الرجاء لا يصدق إلا مع العمل.

وإذا كان الرجاء فضيلة كبرى في ميدان مكارم الأخلاق، فإنَّ ضده وهو القنوط أو اليأس، ولذلك نهى القرآن عن اليأس أو القنوط فقال في سورة الحجر: (قَالُوا يَسِّرْ لَنَا الْحَجْرَ) (قَالَ اللَّهُ لَا تَكُنْ مِنَ الْفَاقِينَ) * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (الحجر/ 55-56). وقال في سورة الزمر: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/ 53). وقال في سورة يوسف: (وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنََّّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ) (يوسف/ 87).

وأما المؤمن الذي هداه الرحمن ورباه القرآن، فإنَّه يعتمد بحبل الله القوي المتين، ويستضيء بهدي

ربّه المبين، فيظل متمسكاً بعروة الأمل والرجاء، إن نالته نعمة شكر، وإن ابتلاه الله احتمل وصبر، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

وإذا كان الرجاء فضيلة أخلاقية إسلامية مطلوبة محبوبه، فلا بد أن يكون لها حكمة وفائدة وثمرة، ومن هذه الفوائد:

- 1- إظهار العبودية والافتقار إلى الله، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويتطلع إليه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.
- 2- إن الله سبحانه يحب من عباده أن يرجوه ويسأله من فضله، لأن الله الملك الواسع الجود والعطاء، وهو أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب شيء إلى الجواد أن يسأله السائلون ويرجوه الراجون، حتى ورد في الحديث: "مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ".
- 3- الرجاء حاد يحدو الراجي في مسيرته إلى ربه، ويحثه عليها، فلولا الرجاء ما سار أحد، فإنَّ الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.
- 4- إنَّ الرجاء يضع صاحبه على عتبة الحب، ويدخله ساحته، فكلما اشتد رجاء العبد، وحصل له ما يرجوه، ازداد حباً لله تعالى، ورضى عنه، وشكراً له.
- 5- إنَّ الرجاء هو الذي يبلغ بصاحبه المقام الأعلى: مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.
- 6- الرجاء يوجب لصاحبه المزيد من معرفة صفات الله وأسمائه الحسنى، فيتعلق بها ويدعوه بها، كما قال الحقُّ جلَّ جلاله: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) (الأعراف/ 180). وهذه الأسماء هي أعظم ما يدعو بها الداعي.
- 7- إنَّ الله تبارك وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته، من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضى والإنابة، وغيرها، فالرجاء عنصر من عناصر التكملة لهذه العبودية.
- 8- في الرجاء انتظار وترقب وتوقع لفضل الله، وهذا يجعل القلب متعلقاً على الدوام بذكر الله، موصول الالتفات إليه، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان معه سعد وفاز.

اللهم لا تحرمنا نعمة الرجاء فيك، والأمل في كرمك وفضلك! ►